تعد «ولاية الفقيه» العمود الفقري للثورة الإسلامية الإيرانية، والتي ما تزال مثار بحث وجدال مستمرين. تطل القراءة الآتية على الحجج الدينية المتبعة فيها وما فيها من تحولات أيديولوجية

تحولات نظرية تبعاً للظروف والاقتضاءات

النزوع إلى الزيدية في اللاهوت السياسي الشيعي

محمود بارجو

تجمع أمام ضريح فاطمة معصومة في قم في إيران 2020/3/16 (فرانس برس)

منذ بداياتها الأولى، كانت الثورة الإسلامية الإيرانية مليئة بالمفاجآت والمنعطفات اللاهوتية، والحيل الفقهية. وبعد أربعة عقود، لا يزال الشذوذ المحيّر سمة مستمرة لها، على الأقل في عالم اللاهوت السياسي. وفي الواقع، كان العمود النظري التأسيسي للثورة، أي نظرية ولاية الفقيه، منفصلا عن النظرة التقليدية الهادئة غير السياسية وعمرها 13 قرناً. بالإضافة إلى ذلك، اعتبر المراقبون الغربيون من الخارج، في البداية، الشيعية مساويةً للحماس الثوري، النشاط السياسي، الجهاد والاستشهاد. تكونت هذه الرؤية، في غالب الظن، إثر الاستقبال واسع النطاق للتفسيرات الثورية التي قدمها علي شريعتي للشيعية، وبدرجة أقل منه الخميني. شكك باحثون قليلون في الصحة التاريخية لهذه الرؤية، وتم قمع بعض من عارضوا ذلك بوحشية.

ألقى كل من شريعتي والخميني الضوء على النشاط السياسي للنبي محمد (ص) والإمام علي بن أبي طالب وانتفاضة الإمام الحسين ضد يزيد الخليفة الأموي، واعتبرا هذه الإجراءات مثالا يلزم أن تحتذي به الطائفة الشيعية. على أية حال، عمر النبي محمد وعلي والحسين لا يشكل سوى جزء بسيط من تاريخ النجاة الديني للشيعة، والذي يمتد قرابة القرنين ونصف القرن. أما حياة الأئمة العشرة الآخرين، فهو كل شيء، ما عدا أن يكون نموذجاً للنشاط السياسي. وبالفعل، بعد مقتل الحسين عام 680، كان أسلوب الامتناع عن العمل السياسي المنهج الذي نوقش بوضوح، وتبنّاه عمداً أئمة الشيعة. ولجعل هذه النقطة أكثر وضوحًا، انقسم الشيعة، في الغالب، إلى عشرات الفرق، وذلك بسبب خلافهم بشأن الموقف من النشاط السياسي. امتنع الشيعة الاثنا عشرية امتناعاً قطعياً عن الانتفاضة ضد الحكم السني (لا يزالون يعتبرونه جائراً)، وبدلاً من ذلك ركزوا على الخلاص الفردي والنهوض بالمعرفة الدينية. في المقابل، ذهبت الطائفة الأكثر ثورية، الزيدية، إلى أن «القيام ضد الحكام السنة الحاليين» شرط أساسي لمنصب الإمام. وكما هو الحال، أصبح تاريخهم ملفوفًا في ثوراتٍ دمويةٍ متكرّرة. من الواضح أن القارئ قد يتفق مع الكاتب أن الزيدية تفتقر إلى رؤية استراتيجية؛ لأنهم لا يشكلون سوى نصف بالمائة من سكان العالم المسلمين مقارنة بحوالي 15% من الاثني عشرية.

استخدم الثوار الإيرانيون الحجج الدينية على نطاق واسع، لتعبئة الجماهير وإضفاء الشرعية على حكمهم. لا يوجد سبب للاعتقاد بأنهم كانوا حتى على وعي بتقمصهم دور الزيديين. من الأفضل أن نفترض أنهم لم يتفاعلوا إلا مع مطلب مجتمعي، يطالب بتطبيق مذهب الشيعة في ساحة السياسة. ولذا غيّروا اتجاه العقيدة الشيعية التقليدية والمتبعة، ليوافق المنحى السياسي الغالب، وعلى الأرجح من غير قصد. ونعلم أن تسييس الشيعة كان إجراءً مستمرًا منذ الصفويين، فمهما كانت العقلية وراء هذا التغيير النظري، فإن النتيجة هي دين سياسي قريب جداً من الزيدية، بدلاً من الشيعة الاثني عشرية.

لقرون، لا تسمح الشيعة الاثنا عشرية بالخروج المسلح ضد الحاكم المسيطر، وبالقيام لتنفيذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لكن الشيعية الزيدية (أتباع زيد بن علي) يعتبرون الانتفاضة المسلحة ضد الحكام الظلمة من أحد أهم شروط الإمام. ولهاتين الرؤيتين المختلفتين جذور تمتد إلى الخلاف التاريخي ما بين الإمامين الخامس والسادس محمد الباقر وجعفر الصادق من جهة، وزيد ابن الإمام الرابع للشيعة (علي بن الحسين) من جهة أخرى، فيما يخص القيام ضد الأمويين. فكما نعلم، نهى الإمامان الخامس والسادس للشيعة الإمامية (محمد الباقر وجعفر الصادق) زيداً عن الثورة مرّة تلو المرّة، وأنذراه بأن مصيره ليس إلا الموت. على الرغم من هذه الوصايا، ثار زيد على الأمويين، ولقي مصرعه. إثر هذه الخلافات في الرؤى، أعلن الشيعة الجهادية زيداً بن علي إماماً لهم، وكوّنوا الفرقة الزيدية أخيراً، وبقي معارضوهم حول جعفر الصادق وفيما بعد أبنائه، وصاروا اثني عشرية.

أصبحت هذه الميزة، أي معارضة النشاط السياسي والجهاد ضد القوة الحاكمة، أحد المقومات النظرية والتطبيقية للشيعة الاثني عشرية حتى القرن الرابع عشر الهجري، ففي هذا القرن، جاء آية الله الخميني ليغير هذه السنة العريقة، فأبدع نظرية الحكم الإسلامي في زمن غيبة الإمام المعصوم، ودخل ساحة المعارضة السياسية الدموية للنظام المستقرّ ميدانياً. وبعد إطاحة هذا النظام تقلد هو زمام الحكم. ويكتسب هذا الاتجاه المشترك، نظرياً وعملياً، أهميته من أن العداوة كانت تسود العلاقات بين الإمامية والزيدية في القرون الأولية لتاريخ الإسلام. ومن الطريف أن الزيدية تعتبر مماثلة للنواصب أحياناً في الروايات الإمامية، وقد تعرّضوا للعن والطعن. ومن جانب آخر، كتب كبار شخصيات الزيدية آثاراً في رفض المدرسة الجعفرية، واعتبروا المنتمين إليها من أهل النار. والغريب أنه، وخلافاً للأقوال الموجودة في بعض آثار علماء الإمامية في بطلان الزيدية، أشاد آية الله خامنئي، في محاضراته الدراسية الدينية العليا عام 2016، بزيد قائلاً ما ترجمته كما يلي: «إن زيداً، هذه الشخصية الكريمة التي تعد من أعلى الشخصيات المنتمية إلى آل النبي (ص)، من الشهداء المرموقين للعترة الطيبة. هو شخصية عظيمة للغاية وإنسان رائع. قد وقع أشخاص في الخطأ بشأن هذا الشهيد العظيم القدر، زعماً بأنه سار بخروجه مساراً مخالفاً لطريق الأئمة. وينقلون حديثاً للإمام الباقر (ع) بأنه منع زيداً من القيام. وهذه الرواية لو كانت صحيحة، وهي محل النقاش، فزيد قبل توصية الإمام، ولم يخرج ثائراً في زمنه. كانت ثورته زمن الإمام الصادق (ع). إذا قرأ الإنسان سيرته، رأى أنه من أكثر وجوه أهل البيت (ع) عظمة وأنورهم».

كما أمر خامنئي بتجديد مضجع أبي محمد الحسن الأطروش، الشهير بناصر الحق (من كبار الزيدية) في مدينة آمل الإيرانية. وحسب التقارير المنتشرة في مصادر الأنباء الإيرانية، تم هذا الأمر بطلب من الشيعية الزيدية في اليمن. وقد انعقد المؤتمر الدولي لتكريم ناصر الحق في مدينة آمل، بمشاركة كل من محسن قمي مساعد القائد في شؤون العلاقات الدولية، وآية الله أختري الأمين العام لمجمع أهل البيت العالمي، وآية الله الطبرسي ممثل ولي الفقية في محافظة مازندران. يبدو من هذه القرائن أن الموضوع وراء تشابهات محضة.

إضافة إلى ذلك، وإن لم يذكر اسم من الزيدية في المحضر التفصيلي لمداولات مجلس خبراء الدستور عام 1980 ومذكرة الدستور الإيراني، ولم يكن نقاش بشأنها، لكنه في الصياغة النهائية للدستور اعتبرت الزيدية من المذاهب الشرعية، بجانب المدارس الأربع لأهل السنة. يقال إن آية الله شريعتمداري احتج على هذا الأمر، قائلاً لماذا تم الاعتراف بالزيدية في الدستور، ولم يُذكر شيء عن الإسماعيلية، مع أن الأخير أقرب بكثير منها إلى التشيع؟

> استخدم الثوار الإيرانيون الحجج الدينية على نطاق واسع، لتعبئة الجماهير وإضفاء الشرعية على حكمهم
>
> الانسجام مع الزيدية هو في الجانب المقابل لتعامل الجمهورية الإسلامية الإيرانية مع الإسماعيلية

الزيدية والإسماعيلية

ربما يرجع قسم من هذا الاتجاه المشترك إلى استقبال الزيدية الثورة الإسلامية، خلافاً للإسماعيلية التي كانت لها علاقات حسنة مع الحكم البهلوي. وبالطبع لم تول الحكومة ما بعد الثورة اهتماماً بهم. جاء ممثل الزيدية إلى إيران في بداية انتصار الثورة، واستعمل لفظة «الإمام» لآية الله الخميني، والتي روّجها أبو الحسن بني صدر (أول رئيس لإيران بعد الثورة الإيرانية) سابقاً. لكن النقطة المشتركة ما بين الخميني والزيدية أن الأخير يعتقد أن الإمام يجب أن يكون حاضراً (وليس غائباً)، وقام بثورة مسلحة، ويكون «سيداً»، أي من سلالة الأئمة، وقد اجتمعت كلها في الخميني. كما نعرف أن بدر الدين الحوثي قائد جماعة أنصار الله ومؤسسها بذل جهوداً كثيرة لمكافحة التعاليم الوهابية في اليمن، وكان ينوي أن يقرّب الزيدية إلى الإمامية أكثر فأكثر. يقال إن طقوسا دينية كثيرة للإمامية، وخصوصا طرازها الإيراني، دخلت إلى الطقوس الدينية للحوثيين في العقد الأخير، منها: إقامة العزاء للإمام الحسين، وتكريم بعض الأعياد المذهبية للشيعة. هذا الانسجام مع الزيدية هو في الجانب المقابل لتعامل الجمهورية الإسلامية الإيرانية مع الإسماعيلية، وهم قريبون إلى الإمامية من مختلف المناحي؛ منها: في نفي شرعية الخليفتين الأوليين (أبي بكر وعمر)، الاعتقاد بالمكانة الباطنية التكوينية والموروثة للإمام، علم الإمام بالغيب، عصمة الإمام عن الذنب والخطأ، أهمية التقية. نعرف أن ممثل الإسماعيلية لم يُقبل حتى في مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية. ربما ينجم سبب إيثار الزيدية على الإسماعيلية أولاً عن النزعة غير السياسية لهم على الأقل في القرون الأخيرة، مقارنة بالنزعة الثورية للزيدية. وثانياً عدم إيلائهم الاهتمام بالفقه، والذي أدى، أحياناً، إلى تعطيل الشريعة. وقسم آخر من عدم اهتمام التشيع الثوري بالإسماعيلية، خلافاً للزيدية، ينشأ من أن تاريخ الإسماعيلية بأبعادها الباطنية والصوفية قد امتزج بالثقافة الإيرانية واللغة الفارسية امتزاجاً يمكن أن يكون بديلا جذاباً وقوياً لأيديولوجية التشيع الثوري، وهو بديل منزه عن تشوهات الفقه المهتم بالظواهر ومبدعٌ لمصادر صوفية غنية باللغة الفارسية. يبدو أن وجود هذه الطاقة الكامنة في التيارات الصوفية الإيرانية جعلت الجمهورية الإسلامية تعتبرها خطراً لها. ويُذكر أن مؤسسي اللاهوت والفلسفة الإسماعيلية إيرانيون باستثناء القاضي نعمان، لكن الزيدية لم تكن تتمتع بهذه الجاذبية لقربهم من أهل السنة، وكذلك عدم صلة عميقة بينهم وبين الثقافة الإيرانية. مع هذا، تستفيد الجمهورية الإسلامية من كلتا الفئتين في سياستها الخارجية: من العلويين المقرّبين إلى الإسماعيلية في سورية والزيدية في اليمن. إضافة إلى هذا، السلوك السياسي للإمام الصادق، وهو الامتناع عن النشاط السياسي، أحدث إشكالية نظرية جوهرية للشيعة الثورية، ما جعلهم يحاولون دائماً تبرير إعراضه. قال مرتضى مطهري بصراحة: «حدثت في زمانه حالة أدت إلى نشاط جميع من لهم طموح إلى الحكومة والخلافة، إلا الإمام الصادق، حيث نأى بنفسه عنها... وبشكل عام، هذا الموضوع واضح جداً أن الإمام الصادق نحّى نفسه عن تصدي أمر الحكومة والخلافة تماماً، ولم يكن هناك أي إجراء يدل على رغبة الإمام في تقلد منصب الزعامة». لم يقبل الإمام السادس للشيعة دعوة أي من المعارضين للخروج السياسي، فضلاً عن أنه حذر أنصاره من الالتحاق به؛ سواء ثورة محمد النفس الزكية (يعتبر أنصاره إعراض الإمام السادس عنه بسبب حسد الإمام له) أو أبي سلمة الخلال أو زيد بن علي أو أبي مسلم الخراساني. ولم يدعم جعفر الصادق نظرياً دعاة الجهاد ضد الأمويين، ولا أرسل أصحابه لمساعدتهم، ولا أنفق من أمواله وأموال شيعته في هذه الأنشطة السياسية. إن تفهم انشقاق الزيدية عن الإمامية من هذه الناحية يحتوي على نقاط طريفة في ما يتعلق بالشيعة الثورية اليوم. لم يتسامح الزيديون مع هذا المنهج، وبدأوا حملة تشويه ضد الإمام. كتب علي بن محمد عبيدالله العباسيَ العلوي من كبار العلماء الزيدية في «سيرة الهادي إلى الحق» في شروط الإمامة: «فمن جلس منهم في بيته وأغلق عليه بابه وأرخى عليه ستره، وجرت عليه أحكام الظالمين، ولم يغير في نفسه إذا ظلم، ولم يأمر بمعروف ولم ينه عن منكر، وأُخذ أموال الله فأكل بها الطيبات، ولبس بها لين الثياب، والفقراء والمساكين وراء بابه عراةٍ جياعاً مظلومين مغصوبين حقوقهم، فمن كان على هذه الصفة، فليس بإمام حق، ولكنه إمامُ هوىً وفسق» (ص. 28)

هناك شبه غريب بين الانتقادات بشأن السكوت أمام الحاكم الجائر وانتقادات الخميني رجال الدين التقليديين في زمن الحكم البهلوي، معبراً عنهم باللاجئين إلى الراحة. وخلافاً لتقاليد الإمامية، وامتداداً للمفاهيم الزيدية، أصبحت الشهادة والجهاد الدالين الجوهريين لمنظومة آية الله الخميني الفكرية. ففي رسالته الموجهة إلى رجال الدين عام 1988، عندما أراد الإشادة بهم، ركّز على الشهادة والجهاد، بدل التركيز على دورهم في التعليم والتعلم وتهذيب الأخلاق. تشهد الجملة الثانية للرسالة بوضوح على الدور الجوهري للملحمة والثورة والعمل السياسي، بدل الصمت وانتظار القائم والامتناع عن تأسيس الحكم: «سلام على حملة أمانة الوحي وحاملي رسالة الحرس الشهداء الذين حملوا مكونات العظمة والاعتزاز للثورة الإسلامية على أكتاف التزامهم المخضب والدامي. سلام على رجال الدين الخالدين الذين خلقوا الملاحم وسطروا آثارهم وسيرتهم بدم الشهادة وجوهر الدم، وجعلوا من شمعة حياتهم درة يتيمة من على منبر الهداية والوعظ والخطابة الموجّهة إلى الناس. لله درّ المستشهدين من رجال الدين وطلاب العلوم الدينية فخراً وتقديراً! فهم قطعوا أواصر التعلق بالدراسة والمدرسة لدى معمعان الحرب، وفكوا عقال الآمال الدنيوية عن أرجل حقيقة العلم، وراحوا إلى ضيافة أهل العرش خفافاً، وقالوا شعر الحضور في محفل الملكوتيين».

كذلك يرى الخميني أن أذكار الصوفيين المستمرة وأدعية أسحار أهل العبادة ليست كلها إلا تمني الشهادة. وعبارات الخميني في نقد رجال الدين التقليديين لاذعة وحادة جداً، ويذكر بروح الثورة لدى الزيدية. يطلق على رجال الدين غير السياسيين كلمات مثل المتحجّرين، المتقدسين الحمق، الحيّات الرقطاء، المروجين للإسلام الأمُيركي وأعداء رسول الله. وإن كان الدور الذي يراه الخميني للحاكم نظير القراءة الإسماعيلية للإمام (وهو القادر على تغيير الأحكام الأولية مثل الصلاة والصوم)، فتأكيده على النشاط السياسي العرفي وتأسيس الحكومة أكثر شبهاً بقراءة الزيدية. ومن هذا المنظار، نظرية الخميني حول الإمام مزيج من الآراء الزيدية والإسماعيلية.

(باحث إيراني، وزميل في جامعة ديكن في أستراليا)

طلب يمني

أمر مرشد الثورة الإيرانية، خامنئي، بتجديد مضجع أبي محمد الحسن الأطروش، الشهير بناصر الحق (من كبار الزيدية) في مدينة آمل الإيرانية. وحسب التقارير المنتشرة في مصادر الأنباء الإيرانية، تم هذا الأمر بطلب من الشيعية الزيدية في اليمن. وقد انعقد المؤتمر الدولي لتكريم ناصر الحق في مدينة آمل، بمشاركة كل من محسن قمي مساعد القائد في شؤون العلاقات الدولية، وآية الله أختري الأمين العام لمجمع أهل البيت العالمي، وآية الله الطبرسي ممثل ولي الفقية في محافظة مازندران. يبدو من هذه القرائن أن الموضوع وراء تشابهات محضة.

النص الكامل
على الموقع الألكتروني